﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ٩٤ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: 91 - 98]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ المَوقِفِ القَوليِّ مِنَ الباطِلِ إلى المَوقِفِ الفِعليِّ

لمّا ذَكَرتِ الآياتُ السّابقةُ حِوارَ إبراهيمَ عليه السلام في إنكارِه على أبيهِ وقومِه أنْ يعبُدوا إلهًا سِواهُ سبحانَه، ونَظَرَه في النّجوم وما تبِعه مِن ذِكرِه بأنّه سَقيم، وأنّ ذلك كان لِحيلةٍ في نفسِه، أنْ ينصَرِفوا عنه إلى مُعَيَّدِهم، ويتركوهُ وحدَه؛ لينفرِدَ بإحراز غرضِه الّذي كتَمَه، فلمّا ذَكَر في السّابقِ تمهيدَه للغرَضِ، ذَكَر هنا شُروعَه في الغرضِ نفسِه وهو قولُه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾، ومُستَتْبَعاتِ تلكَ الحادِثةِ، والمُحاكَمَةَ الّتي جرَتْ عليه بسببِها، فهو انتقالٌ من بيانِ موقفِ إبراهيمَ عليه السلام من آلهةِ قَومِه القَوليّ، إلى بَيانِ مَوقفِه الفِعليّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَاغَ﴾: الرَّوْغُ: الميل على سبيل الاحتيال، ومنه: رَاغَ الثَّعلب يَرُوغُ رَوَغَانًا، وطريق رَائِغٌ: إذا لم يكن مستقيمًا، كأنه يُرَاوِغُ، ورَاوَغَ فلان فلانًا، ورَاغَ فلان إلى فلان: مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال، وهنا ﴿فَرَاغَ﴾ بمعنى: مال[1].

2) ﴿تَنطِقُونَ﴾: (نطق) يُقال: يَنْطِقُ نُطْقًا ومنطِقًا، ويكون هذا لما لا نفهمُه نحن، قال تعالى: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النّمل: 16][2]،

(1) الراغب، المفردات، ص: 373.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطق).

والنُّطقُ في التَّعارف: الأصواتُ المُقطَّعة الَّتي يُظهرُها اللِّسانُ، وتَعيها الآذان، ولا يَكادُ يُقال إلَّا للإنسان، ولا يُقالُ لغيرِه إلَّا على سبيلِ التَّبَع[1].

3) ﴿يَزِفُّونَ﴾: (زفف)، يقال: زَفَّ الإبل يَزِفُّ زَفًّا وزَفِيفًا، وأَزَفَّهَا سائقها، ويَزِفُّونَ، أي: يحملون أصحابهم على الزَّفِيفِ، وأصل الزَّفِيفِ في هبوب الرّيح، وسرعة النّعام التي تخلط الطيران بالمشي، وزَفْزَفَ النّعام: أسرع، ومنه استعير: زَفَّ العروس، واستعارة ما يقتضي السّرعة لا لأجل مشيتها، ولكن للذَّهاب بها على خفَّة من السّرور، و﴿يَزِفُّونَ﴾ هنا، أي: يسرعون[2].

4) ﴿تَنْحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَجْرِ شَيءٍ وَتَسْوِيَتِهِ بِحَدِيدَةٍ[3]، والنَّحت: الأَخْذُ مِنَ الشَّيءِ؛ لتجعلَه على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحتِ النَّحيتِ والصَّنمِ والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأَجسام الصُّلبة المُحتملة لذلك، وقد يُتجوَّز به في غيرها[4]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[5]، والنُّحَاتَةُ: ما يسقُطُ من المَنْحُوتِ، والنَّحِيتَة: الطّبيعةُ الَّتي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنَّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[6]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِن وَسَطه أو من جوانبه.

5) ﴿كَيْدًا﴾: أصلُ (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ، ثم يُسمّون المكرَ كيدًا[7]، والكيدُ منَ المكيدة: وهو الاحتيالُ والاجتهادُ فيما يقصدهُ الإنسانُ، وغلبَ في المكر[8]، وهو أيضًا: الخبثُ، والمَضرّةُ، والتّدبيرُ المُحكمُ الشّديدُ وتنفيذُه[9]، وقد يكونُ مَذمومًا ومحمودًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ، وهنا ﴿كَيْدًا﴾ بمعنى: السوء[10].

6) ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: الجذر (سفل) من السُّفْل: ضدُّ العلو، وسَفُلَ فهو سَافِلٌ، قال تعالى:

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 373.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نحت).
(4) السّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (نحت).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (نحت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كيد).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (كيد).
(10) الرّاغب، المفردات، ص: 728.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: 74]، وأَسْفَل ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 42] وسُفَالَةُ الرّيح: حيث تمرُّ الرّيح، والعلاوة ضدّه، والسِّفْلَةُ من الناس: النّذل، نحو الدّون، وأمرهم في سَفَالٍ، ومعنى ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في الآية، أي: الأذلّين حجَّة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمنُ أشدُّ انتصارًا للهِ الحقِّ مِن انتصارِ الضّالّينَ لباطلِهم

تُبيِّن الآيةُ الكريمة ما قام به إبراهيمُ ﷺ من رَوَغانِه إلى أصنام قومِه مُسرِعًا مُتخفّيًّا، وقد عَرضَ عليها الطّعامَ الَّذي وضعوه أمامَها؛ ليُصيبوا من بَركَتِها في زعمِهم، فبدأ في خِطابِ مَعبوداتِهم، سُخريةً منه واستهزاءً، وتقريرًا وإنكارًا، وغيظًا من عابديها وتوبيخًا: (ألا تأكُلون هذا الطَّعامَ الَّذي يُقدّمُه لكُم سَدَنَتُكم؟! ما لكُم لا تَنطِقون ولا تُجيبون مَن يسألُكم؟!) فأقبَل على آلهتِهم يَضربُها ويُكسِّرها بيدِه اليُمنَى؛ ليُثبِتَ لقومِه خطأَ عِبادتِهم لها، فأقبَلَ إليه قَومُه - راجعين من مُعيَّدِهم لَمّا عَلِموا بالخَبرِ - يَعْدونَ مُسرِعين غاضبين، جاهزين للفتْكِ به، فلَقيَهم إبراهيمُ بثباتٍ قائلًا: (كيفَ تَعبُدونَ أصنامًا تنحِتونها أنتم، وتصنَعونَها بأيديكُم، وتَترُكونَ عِبادةَ ربِّكم الَّذي خَلقَكُم، وخَلقَ عملَكُم؟!) فلمّا قامتِ عليهِمُ الحُجّة، ونكَسوا رؤوسَهم، لجَؤوا إلى القوّة والاعتداءِ، وقالوا: (ابنوا له بُنيانًا، واملَؤوه حَطبًا، وأضرِموا فيهِ النّار حتَّى إذا التهبَ كالفُرْنِ العظيم، فألقوهُ في جَحيمه المُشتعِلِ دركاتٍ بحَجمِ ذلك البُنيان)، فأرادَ قومُ إبراهيمَ به كيدًا بشُروعِهم في إهلاكِه حرْقًا، فجعلَهم اللّهُ المَقهورينَ المَغلوبينَ، ورَدَّ اللّهُ كيدَهم في نُحورِهم، وجعَلَ النّار على إبراهيمَ بردًا وسلامًا[2].

(1) الطبري، جامع البيان: 19/ 576.

(2) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في التّفسير، المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميّة، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر مجمع الملك فهد، وأبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 416.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالتُها الرّابطةُ:

صاحِبُ الحقِّ يدفعُ الباطلَ بعملِه ما لم يجِدْ للقَولِ نَفاذًا

قولُه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ مَعطوفٌ على قوله: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾، والفاءُ تدلّ على سُرعة الإتيانِ بالفِعلِ بمُجرّد حُصولِ سببِه؛ أيْ: (بمجرّد أن ولَّوا مُدبِرين وذهبوا عنه راغَ إلى آلهتِهم على الفور). ويصِحّ أن تكونَ الفاءُ للتَّعقيبِ النِّسبيِّ لا الفَوريِّ[1].

بلاغةُ استِعمالِ مُفرَدةِ (راغ):

الرَّوَغان انتقالٌ من مكانٍ لآخَرَ بحيلةٍ وفِطنةٍ

جاء استعمالُ مُفرَدةِ (راغ) في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾، ولم يقُل: (فذهَب إلى آلهتهم)؛ ليدُلّ على أنّه ذَهابٌ مَخصوصٌ بارتِكابِ حيلَةٍ على سَبيل الخُفْيَة. فراغ من الرّوْغ والرّوَغان؛ بمعنى: (الميْل إلى جانبٍ أو جهةٍ خُفْيَةً)؛ لإنفاذ المقصودِ من غَيرِ انكشافٍ وظُهورٍ[2]، واختيارُ هذه المُفرَدةِ لبَيانِ أنَّ إبراهيمَ ﷺ قد احتالَ فيما يُريدُه مِن ضَرْب الأصنام الآلهةِ، وأنَّ القومَ كانوا مُحتاطين منه، فلمّا أوهمَهم السُّقْمَ المُقعِدَ - وسُقْمُهُ معنويٌّ من حال قومِه، أو أنّه سُقمٌ مستقبليٌّ باعتِبار ما يَعتَري آحادَ البشَرِ - تَركوهُ وذهَبوا إلى شأنِهم، فذهَبَ حينَئذٍ إلى الأصنامِ، فناسَبَ هذا المعنى هذه المُفردةُ دونَ رديفاتِها.

بلاغةُ التَّضمينِ:

بُلوغُ الغاياتِ يحتاجُ إلى بذلِ الأسبابِ والإعانةِ مِن ربِّ الأربابِ

عُدّي فِعلُ (راغ) بحَرف الانتهاء ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾؛ لتضمينه معنى الذّهاب[3] والوصولِ؛ أيْ: (ذَهب إليها)، ونُكتةُ التَّضمين بيانُ أنَّه أراد الوصولَ إلى مكانِ معبوداتِهم، وأنَّه أمرٌ يحتاجُ إلى حيلةٍ وتدبيرٍ، ففيهِ إشارةٌ إلى نجاحِ خُطّتِه، وإنفاذِ حيلَتِه.

---

(1) صافي، الجدول: 12/ 70.

(2) الرّاغب، المُفرَدات: (روغ)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 342.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 143.

علّةُ إطلاقِ اسمِ الآلهةِ على الأصنامِ:

استعمالُ الألفاظِ بحسَبِ اعتقادِ الآخَرِ ليسَ ممنوعًا

إطلاقُ وصفِ الآلهةِ على مَعبوداتِهم الباطِلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، هو بحسَبِ اعتقادِهم[1]، ولذلك أضافَه إلى ضميرِهم، وهي إضافةُ تسجيلٍ عليهم، تثبيتًا لجنايتِهم، وامتهانًا لهم، فهي الأصنامُ الَّتي يتَّخِذونَها من دونِ اللّهِ تعالى، وهذا حالُها الَّذي ستَعرِفُه أيُّها المُخاطَب.

نكتةُ المَجازِ بالحَذفِ:

لأجلِ بيانِ المَقاصِدِ تُحذَفُ الوسائلُ

في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ جرَى المَعنى على حَذفِ مُضافٍ؛ أيْ: فَراغَ إلى مكانِ آلهتِهم، أو إلى مَعبَدِ آلهتِهم، أو مَجْمَعِ آلهتِهم؛ لأنَّ الذّهابَ إلى الآلهةِ هو انتهاءٌ إلى مَقرّها الَّذي جَمعوها فيه، فهو مَجازٌ بالحذفِ، ونكتتُه بيانُ المَقصودِ بالوصولِ، وهي الأصنامُ؛ للتَّنبيه على أنَّه كان على تفكيرٍ وتدبيرٍ لِما يَقومُ به، ولَم يأتِ الأمرُ اعتباطًا.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

أعمالُ الأولياءِ مُيسّرةٌ بإعانةِ ذي الجلالِ والكبرياءِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَعطوفةٌ على ما قَبلَها ﴿فَرَاغَ﴾، والفاءُ تفريعيّة؛ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، ويَصِحّ أن تكونَ فصيحةً، على تقديرِ مَحذوفٍ؛ أيْ: فراغَ إلى آلهتِهم، فوجَدَ حَولَ أصنامِهم طعامًا فقال مُخاطِبًا لها: ألا تأكُلون، ومَجيءُ الفاءِ لبيانِ تيسيرِ اللّهِ تعالى له فِعلَه، فهي أحداثٌ مُتواليةٌ مُتسارِعةٌ يَسّرَها العَليمُ القديرُ.

معنى الاستفهامِ وغرضُه المَجازيّ:

الاستهزاءُ بالغائبِ مُتوقِّفٌ على مقصودِ المُتكلِّمِ لا على حُضورِ الغائبِ

الاستفهامُ بـ ﴿أَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ لِعرضِ القيامِ بالفعلِ، فهو ﷺ يَعرِض على تلك الأصنامِ أن تأكُلَ الطَّعامَ الَّذي كدّسَه عبَدَتُها حولَها. و﴿أَلَا﴾ تدخُلُ على فِعلٍ مُقدَّرٍ حُصولُه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 143.

فالاستفهامُ بها عن فِعلِ ما يُستَقْبَل[1]، فغرضُ الاستفهام طلَبُ القيام بفعلٍ غيرِ مُتحَقِّقٍ.

وغَرضُ الاستفهام الاستهزاءُ بالآلهةِ العاجزة الجامدةِ، فهوَ استِعمالُ الاستفهام في غَيرِ مَعناهُ الحَقيقيِّ، فهو مجازٌ مرسلٌ لعَلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييد، فأطلَقَ الاستفهامَ وقيّدَه بمعنى الاستهزاءِ والتَّندُّرِ بالآلهةِ، أو بعابديها - غيرِ الحاضرين أمامَه - توبيخًا واحتقارًا، فقد يَحتقِرُ المرءُ الغائبَ كما يَحتقِرُ الحاضرَ[2]، وإنّما يُنتزع هذا المعنى من السّياق.

بلاغةُ التّعريضِ في استعمالِ مُفرَدةِ الأكلِ:

إطلاقُ الأكلِ وإرادةُ الآكِلِ الحقيقيِّ تعريضًا به

لَمّا قال ﷺ مُخاطِبًا الأصنامَ بالأكلِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ دلَّ ذلك على أنّ عرضَ الأكلِ عليها كنايةٌ على أنّ الأكلَ كان موجودًا إلى جانبِها[3]، وهذه إشارةٌ قرآنيّة إلى صنيعِ القومِ معَ الأصنام، وأنّهم اعتقَدوا فيها الاعتقادَ الباطلَ، أو أنّ سدَنةَ الأصنامِ هم الَّذين ابتدَعوا هذهِ الحيلةَ كي يُقدِّمَ العَوامُّ الطّعامَ للأصنامِ فيأكلَها خدمُ الآلهة، وعليهِ فَفيهِ إشارةٌ إلى أنَّه يُعرِّض بسادةِ الكُفرِ الَّذين هُم مَن سيأكُل تلك المَطعوماتِ، وأنّه لا آكِلَ ولا مأكولَ إلّا ما يقومُ به المُجرِمون؛ كأنّه قال: (ألا تأكلون أو أنّ غيرَكم سيأكُلُ!).

توجيهُ الاستعارةِ في الخِطابِ:

لو قُدِّرَ للأصنامِ عقلٌ لكانت أعقلَ مِن عابديها

لَمّا وجّه إبراهيمُ ﷺ الخِطابَ إلى غيرِ العاقل وهُم الأصنامُ، وقَع تشبيهُهم بالعاقِل؛ إذ غيرُ العاقلِ لا يُخاطَب، وذلكَ بتَنزيلِ غَيرِ العاقلِ مَنزلةَ العاقلِ في صلاحيَّةِ الخطاب، وهذهِ استعارةٌ تصريحيّةٌ بقرينةِ الخِطاب، وهو لا يكونُ إلّا لعاقل، ولاستِعمالِ ضميرِ العُقَلاءِ في ﴿تَأْكُلُونَ﴾، ونكتته الاستعارة قد تقدَّمت في

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 285، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 210.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 285.
(3) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 200.

الاستهزاءِ بالأصنامِ، المرادُ به بيانُ ضعفِ عُقولِ عابديها، وذَهابِ إدراكِهم ويقظتِهم.

بلاغةُ الكنايةِ في خِطابِ الأصنامِ:

الغضبُ توطِئةٌ للعملِ وتهيئةٌ لإنجازِ المطلوبِ

مُخاطَبةُ إبراهيمَ ﷺ تلكَ الأصنامَ بقولِه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ وهو في حالِ خَلوةٍ بها وعلى غيرِ مَسمعٍ من عبَدتِها، فيه كنايةٌ عن ثَوَرانِ نفسِه غضبًا عليها - إذ زعَموا لها الإلهيّة - فكأنّ في خِطابِه لها قوّةً وعَزمًا على تحطيمِها[1]؛ فالإنسانُ لا يُخاطِبُ غيرَ العاقِلِ، وهو إنّما خاطَب بها عابديها، وقد جعَل الخِطابَ توطئةً للتّحطيمِ والهدمِ، لأنّ الانفِعالَ قَبلَ الفِعلِ أحرَى بالأداءِ والقيامِ بالمَطلوبِ.

بلاغةُ التَّوريةِ في الخِطابِ:

وراءَ كلِّ خِطابٍ مَنطوقٍ خِطابٌ مُرادٌ مَفهومٌ

في جَعلِ إبراهيمَ ﷺ الخِطابَ متوجِّهًا إلى الأصنامِ توريةٌ بديعةٌ في المُخاطَبِ المقصودِ، فإنّه ما قصَد خِطابَ الجماداتِ؛ لعدمِ صلاحيّتِها أصلًا للخِطابِ، فلَم يقصِد المَعنَى الحقيقيَّ للخِطابِ، بل قصدَ المَعنَى اللّازمَ عن الخِطابِ، وهو تذكُّر كَذِبِ الَّذين ألّهوها والَّذين سَدَنوا لها بالخِدمةِ، وزعَموا أنّها تأكُل الطّعامَ الَّذي يضعونه بين يدَيها ويزعُمون أنّها تكلِّمُهم وتُخبرُهم[2]. فهناك معنًى قريبٌ غيرُ مقصودٍ وهو خِطابُه لتلكَ الآلهةِ، ومعنًى بعيدٌ هو المقصودُ، وهو لازمُ ذلك الخِطابِ، وذلك هو حاصِلُ التَّورية.

بلاغةُ فَصلِ الجملةِ عن السّابقةِ:

نفيُ مَطاعِنِ المُبطِلين وأوهامِ العَوامِّ مِن مقاصِدِ النّظمِ

قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ مِن تمامِ مَقولِ القَولِ في قولِه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أيْ: (قال ذلك)، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾. أو هي مَقولٌ لقَولٍ مقدَّر؛ أيْ: فقال ألا تأكُلون، فلم يُجيبوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 143.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 144.

بِشَيءٍ، فقالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، فعلى ذلك ليسَتْ داخِلةً في حيّزِ القَولِ في قولِه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[1]، فصَحَّ أن تكونَ استِئنافًا بيانيًّا، أي لَمّا أمرَهم بالأكلِ، فكأنَّ سائلًا قد سَألَ عن مآلِ الأمرِ؟ فجاء الجوابُ قال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، دفعًا لتوَهُّمِ أنّها تَنطِقُ عندَ السُّؤال، فإنَّ للنّاس أوهامًا في هذا البابِ، ما بَينَ وهْمِ الباطِلِ كما قد يَزعُمُهُ المُبطِلون الطّاعنون، وبينَ وهمِ أهلِ الحقِّ بأنَّه مِن المُحتَمَل أن يَخلُقَ اللّهُ فيهِمُ القُدرةَ على الإجابةِ مُعجزةً لإبراهيمَ ﷺ؛ فدُفِع ذلكَ كلُّه بهذِهِ الجُملةِ، فتكونُ من بابِ شِبهِ كمالِ الاتِّصال، أو تكونُ من كمالِ الاتِّصال بيانًا للجُملة المتقدِّمة، وذلك أنّه لمّا أمرَهم بالأكلِ، جاء قولُه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بيانًا أنّهم لَم يأكُلوا بنفيِ ما دونَ الأكلِ وهو النُّطق.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

غَرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ للتّحقير؛ يَعني أنّه يُحقِّرها بكونِها لا تنطِقُ، والتّحقيرُ هنا وإن كان مُتوجِّها إلى الأصنامِ ذاتِها، إلّا أنّه يستلزِمُ تحقيرُها تحقيرَ عابديها؛ لأنّه إذا كان المَعبودُ المُؤلَّهُ حقيرًا، فأوْلَى بالحقارةِ منه مَن يعبُدُه ويعتقِدُ فيهِ استحقاقَ الألوهيّة؛ لأنّه رَضي بعبادةِ ما لا وزنَ له ولا رُتبةَ، هو ضربٌ من الحقارةِ والسّفَهِ في العابِدِ، وهذا في غايةِ التّحقير لكلِّ عابدٍ للأصنام.

عبادةُ ما لا وزنَ لهُ ولا رُتبةَ دليلٌ على حَقارةِ العابِدِ والمعبودِ معًا

نكتةُ مُخاطَبةِ الجَمادِ مُخاطَبةَ العُقلاءِ:

خاطَبَ إبراهيمُ ﷺ بقولِه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ الأصنامَ مُخاطَبَةَ العقلاءِ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ولم يقُل: (ما لَكُنَّ) تنزّلًا مع أصحابِها الَّذين يَجعَلونَها مِن ذَواتِ العِلم، وذواتِ القَبولِ

التّعريضُ بكُفّارِ قريشٍ الَّذينَ يُعامِلونَ الأصنامَ مُعامَلةَ العُقَلاءِ

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 153.

والدَّفعِ عنهم، وتَنزيلُه الأصنامَ منزلةَ من يَعقِلُ في الخِطابِ تسجيلٌ عليها بالعَجْز، وعلى عابديها بالسّفَهِ والبلادةِ، فمعنى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾: أيْ: (أيُّ شيءٍ يمنعُكم من النُّطق إن كُنتُم آلهةً؟!)[1] والمقصودُ بذلك قُرَيش الَّتي تَسمَع هذا الخطابَ؛ فهو تعريضٌ بهم، وهذا من مُضاعَفاتِ مَقاصِدِ النّظم القرآنيّ.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

التَّدرّجُ في تجليَةِ الحَقِّ مِن الخِطابِ إلى الفِعالِ

الفاءُ في قولِه تَعالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ لعطفِ الجملةِ على قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، والفاءُ تفريعيّة؛ لتَرتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، ولإفادةِ التَّعقيبِ الفَوريّ والإسراعِ في إنجازِ مَدخولِها والتَّلبُّسِ به بعدَ انقطاعِ جَوابِهم عنه، ويَصِحُّ أن تكونَ فصيحةً عاطفةً مَدخولَها على محذوفٍ مُقدَّرٍ؛ أيْ: سألَهُم فلَم يُجيبوا شيئًا فانهالَ عليهم ضَربًا[2].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ (راغ):

بعضُ المَصالِحِ لا تَنفُذُ إلّا بحيلةٍ وتخَفٍّ

آثَر النّظمُ الكريمُ استِعمالَ مُفردةِ (راغ) دونَ رديفاتِها - كأقبَلَ - في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾، فلَم يقُل: (فأقبل عليهم ضربًا)؛ لأنّه أراد التَّنبيه على حالٍ مخصوصةٍ في ذلك الإقبالِ، وهو أنّه إقبالٌ مقترنٌ بالاحتياط والاحتيال والتَّستُّر؛ فإنّه وإن كان وحدَه مع الآلهة، فإنَّه أراد ضربَها وهدمَها دون أن يُلاحِظَه أحدٌ، فكان إقبالًا صادرًا عن تفكيرٍ مُسبّق؛ فجاء التّعبيرُ بمُفردةِ (راغ)؛ لأنّه ما كان يتأتّى له ﷺ أن يُجاهِرَ بتحطيمِه الأصنامَ عيانًا بَيانًا، اتّقاءً لِما يقتَضيه ذلك من المَفاسِدِ والأضْرار، فكان إقبالُهُ على ذلك حَيطَةً وحَذَرًا.

(1) ابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 201.
(2) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 257، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 23/ 153.

نُكتةُ تَكرارِ مُفرَدةِ (راغ) في السّياقِ:

لا تتحقّقُ المَقاصِدُ إلّا بوسائِلِها الَّتي من جِنسِها

تَكرَّرَ استعمالُ مُفرَدةِ (راغ) مرَّتَين؛ الأولى في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ والأخرى في قولِه تَعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ في هذا السّياق، وذلكَ أنّ هذهِ المُفرَدةَ اشتمَلتْ على معنَى الخِفّةِ والتّفكيرِ المُسبَّقِ بالفعلِ واستعمالِ الحيلةِ للوُصولِ إلى الهَدفِ، وجِماعُ ذلك الانتقالُ من مكانٍ لآخر، أو مِن حالٍ لأخرى بحيلة وخِفّة، فقد راغ ﷺ مرّتَين، الأولى وسيلةُ الثّانية، فالأولى هي الوصولُ إلى أماكنِ الآلهةِ الَّتي كانتْ مَحفوظةً، والثّانيةُ هدْمُ الأصنامِ وكَسرُها، ولا تتحقّق الثّانية إلّا بالأولى، مع اجتماعِ الاحتيالِ والخِفّة في المرَّتين؛ ففيه بيانُ أنّ إبراهيمَ ﷺ كان مُحتاطًا أشدَّ الاحتياط لإنفاذِ ما يُريد، وبلوغِ مَقصِده، وقد تحقَّق له ذلك بسُلوكِ الأسباب، مع الاستعانةِ بالعزيزِ الوهّاب.

بلاغةُ التّضمينِ بتعديةِ الفِعلِ بحرفِ الاستعلاءِ:

عجزُ الأصنامِ المُطلَقُ ظاهرٌ وعجزُ عابديها العقليُّ أظهَر

عُدّي فعل (راغ) بحرف الاستعلاء؛ لتضمينِ (راغ) معنى (أقْبَل)؛ أيْ: أقبَلَ عليهم بالضَّرب والتَّحطيم. ولا يَخفَى اقتضاءُ المعنى لذلك؛ لأنّ التَّحطيمَ والكسْرَ والضَّربَ هو استعلاءٌ من الضّاربِ على المَضروب، وفيه إشارةٌ إلى عجْزِ الأصنامِ التّامِّ بقرينةِ حرفِ الاستعلاءِ الَّذي يدُلّ على تمكّنِ إبراهيمَ ﷺ منهم تمكّنًا تامًّا[1]، وبالتّضمينِ يقَعُ الإيجازُ، إذ جَمَعَ معانيَ (راغ) وما دلّ عليه الاستعلاءُ من معنى الإقبالِ والإقدامِ المُشرَبِ بمعنى الغضَب.

مَوقعُ ﴿ضَرۡبَۢا﴾ في البيانِ:

اختلافُ الأعاريبِ فُسحةٌ في المعنَى عجيبٌ

تَحتملُ كلمةُ ﴿ضَرۡبَۢا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ ثلاثةَ أعاريبَ: فهي تحتملُ أن تكونَ نائبًا عن المَفعولِ المُطلَقِ من الفعلِ (راغ) من غيرِ لفظِه، كجلسْتُ قُعودًا، وتحتَمِلُ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 257.

أن تكونَ مفعولًا مُطلَقًا لفعلٍ محذوفٍ؛ أيْ: (راغ عليهم يضرِبُهم ضربًا)، وحُذِفَ الفعلُ؛ لدلالةِ المصدرِ عليه، وتَحتمِلُ الحالَ مِن ضميرِ (راغ)؛ أيْ: (راغ عليهم ضاربًا لهم)[1]، وهذه الأعاريبُ وإن بدت صِناعيّةً في نحوِها، إلّا أنّها تَحمِلُ في طيّاتها دلالاتٍ فرعيّةً بيانيّةً، فالأوّل توجيهٌ لمَعنَى (راغ)، والثّاني تصويرٌ لحَدَثِ الضّربِ، والثّالثُ بيانٌ لهيئةِ الضَّربِ.

نُكتةُ مَجيءِ الحالِ مَصدرًا:

مَـجـيءُ الـحـالِ مَصدرًا لِلمُبالَغةِ في هَيئةِ صاحبِ الحالِ

على إعرابِ ﴿ضَرْبًا﴾ حالًا ومَجيءِ الحالِ مَصدرًا على التّأويلِ بالوصفِ المُشتَقّ؛ أيْ: (ضاربًا)؛ للدّلالة على الحَدَث المُجرّد عن الزمن الّذي يكونُ في الفِعل، وعن الذّات الّتي تكونُ في الوصفِ، فعَبّر بالمَصدرِ مُبالَغةً، فحينَ يقولُ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فكأنّ إبراهيمَ ﷺ تحوّلَ ساعةَ قيامِه بضربِهم إلى الضَّربِ نفسِه، كأنّه لم يَبقَ فيه شيءٌ مِن عُنصرِ الذّاتِ ولا عُنصرِ المادّة، فصارتْ نفسُه ضربًا آخَر على الضّرب الحاصِل، ففيه تصويرٌ لشدّةِ ضربِه، مبالغةً في هيئتِه وهو مُتلبِّسٌ بالفعل، ويكأنّه من شدّةِ اندماجِه في إحداثِ الضَّربِ صار هو الضّربَ نفسَه[2].

نوعُ الباءِ ودَلالتُها البيانيّة:

الـبـاءُ تَـحـتَـمِـلُ الاسـتـعـانـةَ والـسّـبـبـيّـةَ بحسَبِ تفسيرِ (اليَمينِ)

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ باءُ الآلةِ، ومعناها الاستِعانةُ؛ أيْ: (ضربَهم مُستعينًا باليدِ اليَمينِ)، وهي كالباءِ في قولِهم: (كتبتُ بالقلَمِ)، وسُمّيتْ باءَ الآلةِ أو الاستعانة؛ لدُخولِها على آلةِ الفعلِ، وهو مَعنًى لها قريبٌ من معنى المُلابَسةِ، لأنّ الملابَسةَ لازمٌ عن الاستعانةِ، كأنّه قيلَ: ضربًا مُلتبِسًا بقوّةِ اليَمينِ[3]، فيَلزَمُ عنِ استعانتِه بها أن يُلابِسَها، فالاستعانةُ تبدأُ من القَصدِ، والمَلابسةُ تحصُلُ معَ الفعل،

(1) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 153.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 288.
(3) الجَمَل، حاشية الجمل: 3/ 544.

فالاستعانةُ أسبقُ، فاليمينُ بمعنى اليدِ والقوّة، وإذا جعلْنا (اليمينَ) بمعنى القسَمِ فالباءُ سبَبيّة.

براعةُ استعمالِ مُفرَدةِ (اليَمين) بمَعنَيينِ مُرادَين:

اليمينُ بمعنى القَسَمِ تُمثِّلُ القوّةَ النّظريّةَ وبمعنى الجارحةِ تُمثِّلُ القوةَ التّنفيذيَّةَ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدةِ (اليَمين) دونَ ألفاظٍ أخرى في قولِه تعالى: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾؛ وذلك أنّ هذا اللّفظَ يَحتَمِلُ معنَيَين اثنَين، وكلاهُما عندَ التّأمُّلِ مُرادٌ، أمّا الأولُ فهو الجارحةُ الّتي فيها قوّة الضّرب، ونُكتةُ التّعبيرِ باليمينِ دونَ اليدِ أمرانِ؛ الأوّلُ هو الجَمعُ بينَ هذا المَعنى والمَعنى الآخَرِ الّذي سيأتي الكلامُ عليه، والأمرُ الثّاني الإشارةُ إلى مُناسَبةٍ بديعةٍ في السّياق، وهو أنّ مَصالِحَ الدّينِ وحَرَمَ العقيدةِ حريٌّ أن يُصانَ بالأيمانِ ويُدافَع عنه بآلاتِ القوّةِ والغلَبةِ والّتي كان (اليَمينُ) شِعارًا لها وعبارةً عنها.

والمعنى الآخَر هو أن تكونَ مُفرَدةُ (اليَمين) بمعنى القسَم كما يُبيِّنُهُ قولُه تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾ [الأنبياء: 57]؛ أيْ: إنَّه أقسَمَ أن يَكيدَ الأصنامَ؛ فبِسَبَبِ ذلك القَسَمِ راغَ على الأصنامِ ضربًا فكسَرَها، فيكونُ الضربُ تفسيرًا للكَيدِ، والمَعنيانِ مُرادانِ، إذ لمّا أقسَمَ أن يَكيدَ الأصنامَ نفّذَ ذلكَ وحقّقه واقعًا بيمينِه وقوّتِه، فاليمينُ الّتي بمعنى القسَمِ هي القوّةُ العَقَديّةُ والنّظريَّة، واليمينُ الّتي بمعنى الجارحةِ هي القوةُ التّنفيذيَّةُ.

بلاغةُ الكِنايةِ:

اجتماعُ قوّةِ العقيدةِ والبدَنِ مِن دواعي إتقانِ العملِ

في تأويلِ مَعنى الضَّربِ في قولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ بأنّه ضرْبٌ كائنٌ باليمينِ القَسَميّة أو الجارحة، فهو في الحقيقةِ إسنادُ الضَّربِ لليَمينِ مِن حيثُ الدّلالةُ، إذِ الضاربُ قوّةُ اليمينِ النّظريّةُ السببيَّةُ والفعليّةُ الآليّةُ، ففيه كنايةٌ عن الشدّةِ في التّحطيمِ والقوّةِ في الكسْرِ والهدْمِ، لأنّ الإنسانَ إذا استَجمَعَ قوّتَهُ العقَديّةَ والبدَنيّةَ أثناءَ العَمَلِ فإنّه يقومُ بعمَلٍ عظيمٍ شديدٍ، لا يَقوَى عليه ضعيفُ العقيدةِ والبَدَنِ.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ:

المؤمنُ أحقُّ بالانتصارِ للهِ تعالى مِنِ انتصارِ عبَدَةِ الأوثانِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ فصيحةٌ، عاطفةٌ مَدخولَها على كلامٍ مقدَّرٍ يقتضيه السّياقُ؛ أيْ: (فرَجَعوا من عيدِهم فوَجَدوا الأصنامَ حُطامًا فأقبَلوا)، معَ ما فيها مِن تصويرِ المَشهدِ، بسُرعةِ مَعرفتِهم بِما حدَثَ وانتشارِ الأمرِ سريعًا بينَ النّاس، فإنَّ تهديدَ الحقِّ للباطِلِ يُرهِبُ الأعداءَ، فكيفَ بتنفيذِ ما خافوه؟! وفيها إيماءٌ إلى أنّ المُسلِمَ أحَقُّ بالمُبادَرةِ في الانتصارِ للّه تعالى من أولئكَ الَّذين بادَروا في الانتصارِ لآلِهتِهم.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ الإقبالِ:

مَن طُعِنَ في اعتقادِهِ فقدِ استُعدي

جاءَ استِعمالُ مُفرَدةِ الإقبالِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، ولم يقُل: (أتوه أو جاؤوه)؛ ليدُلّ على إتيانٍ قُصِدَتْ فيه المواجَهةُ والمُقابَلَةُ الصَّريحةُ، فأصلُ الإقبالِ يدُلُّ على مواجَهةِ شيءٍ بشَيءٍ[1]؛ فلِلتَّنبيهِ على معنى المواجَهةِ عَبّر بالإقبالِ دونَ غيرِه، ولا يَخفَى ما في التّعبيرِ بالإقبالِ مِن جاهزيّتِهم لعِقابِه، وتحضيرِهم لزجْرِه، فتركيبُ: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ مُشْعِرٌ بانفعالِهم بالغضَبِ والسُّخطِ عليه؛ لأنّ الانفعالَ بالغضبِ والتَّحدّي من مُحرِّضاتِ الإقبالِ والمواجَهةِ، ودلَّ استعمالُ هذهِ المُفرَدةِ على أنّه واجهَهم حينَ أقبَلوا ولَم يهرُبْ أو يَفِرَّ مِنهم، ففيه بيانٌ لشجاعتِه وقوّةِ قلبِه في طلَبِ إظهارِ الحقِّ وعدمِ الخوفِ من الباطل.

توجيهُ تعلُّقِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ بالسّابقِ واللّاحِقِ:

لفظُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قولِه: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ إمّا أن يتعلّقَ بِما قبلَه، أو بما بعدَه؛ أيْ: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أو ﴿إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾[2]، فإذا تعلّقَ بِما قبلَه فظاهِر، وإذا تَعلَّقَ بِما بعدَه فعلى الاختِصاصِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قبل).

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 5/ 508، والجمل، حاشية الجمل: 3/ 544.

براعةُ الاستعارةِ في مُفرَدةِ ﴿يَزِفُّونَ﴾:

المُستعجِلُ على غيرِ بصيرةٍ يُسارِعُ في هلاكِه لا في فِكاكِه

مُفردةُ ﴿يَزِفُّونَ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّة، حيثُ شبّه إسراعَهم في مَجيئِهم إليه، بزَفيفِ النَّعامِ وهو اقترانُ عَدْوِها بطَيرانِها[1]، فتنطلقُ مُسرعةً من وجهِ خَطرٍ يتهدّدُها، فتزِفُّ بجَناحَيها، ونُكتةُ الاستعارةِ بتشبيهِ القومِ بالنَّعامِ الَّذي يُقبِلُ دونَ وعيٍ أو فَهم، ويُشكِّلُ على نفسِه خَطرَ الإقدامِ، ويأتي بالحماقاتِ غيرِ المُتوقَّعة.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ ﴿يَزِفُّونَ﴾:

تَصويرُ طَيشِ القَومِ ورَجاحةِ عَقلِ الخليلِ

جاء الفعلُ ﴿يَزِفُّونَ﴾ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لتصويرِ القومِ كأنّهم يُريدونَ أن يَطيروا إلى إبراهيمَ عليه السلام، وهو كنايةٌ عن طَيشِهم وخِفّةِ عَقلِهم، وفي المُقابِلِ فإنّ هُدوءَ إبراهيمَ عليه السلام يُمثِّل حالَ العقلِ الرّاجِحِ والقَلبِ المُطمئِنِّ، وهذا مِن شديدِ التّهكُّمِ بالقَومِ، والمَدحِ للخليلِ.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيّةِ:

النّوازِلُ تَضغَطُ النّفوسَ المريضةَ حتّى تُسارِعَ إلى غَيرِ قِبلَة

اختلفَ القُرّاءُ في قولِه تعالى: ﴿يَزِفُّونَ﴾، فقرأ حمزة: ﴿يُزِفُّونَ﴾ بضَمّ الياءِ وكَسرِ الزّاي، وهي مِنْ (أزفَّ يُزِفُّ)، وهل الهَمزةُ للتَّعديةِ أو للدُّخولِ في الفِعلِ؟ قولانِ. فعلى كونِها للتَّعديةِ يكونُ المَفعولُ مَحذوفًا، والمعنى: (يُزِفّون دوابَّهم الَّتي تَحمِلُهم؛ للإسراعِ في المَشْي)، وعلى كونِها للدُّخولِ في الفِعل، فالمَعنَى: شُروعُهم في حالِ الزّفيف؛ أيْ: صَيرورتُهم إلى تلكَ الحالِ، كأنّه قيل: (يُزِفّون أنفسَهم بوازِعٍ من الوجْدِ وإلحاحٍ من العِزّةِ لآلهتِهم)، فيدُلّ ذلك على شِدّة الإسراعِ، كأنّهم محمولون على ذلك بسبَبِ ضَغطِ المَوقِفِ وقهْرِ النّازلةِ الَّتي حاقَتْ بهم. وقرأ الباقون بتسميةِ الفاعِلِ: ﴿يَزِفُّونَ﴾ بفَتحِ الياءِ وكَسرِ الزّاي، مِن (زفّ يَزِفّ)، وهي من الزّفيفِ، وهو الإسراعُ في العَدْو، وأصلُه في النّعام[2].

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (زفّ).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 342، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 257، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357.

براعةُ الاستئنافِ البيانيّ في الكشفِ عن عظيمِ المَواقِفِ:

مُجابَهةُ الباطلِ المُعادي خيرٌ من التّواري

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّ إقبالَ القومِ إلى إبراهيمَ بحالةٍ ساخطةٍ وعزْمٍ على البطْشِ به، يُثيرُ في نفسِ السّامعِ تَساؤُلًا عن حالِ إبراهيمَ معَهم وهو فاقدٌ للنّصيرِ مُعرَّضٌ للنّكال، فيكونُ قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ جوابًا وبيانًا لِمَنْ سألَ عن رَدّةِ فِعلِه ﷺ، وذلكَ مُنبِئٌ عن رباطةِ جأشِ إبراهيمَ؛ إذْ لَم يتَلقّ القومَ بالاعتذارِ، ولا بالاختفاءِ، ولكنّه لَقيَهم بالتَّهكّمِ بهِم، إذ قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: 63][1]، وهذا الاستئنافُ يدلُّ على أنَّه ﷺ هو الَّذي بادَرَ بالإنكارِ عليهِم، بِما فيهِ أدلّةٌ على الحقِّ الَّذي معَه، وهو صَريحٌ في شجاعتِهِ وإقدامِهِ واعتزازِه باللّه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ:

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ لِكَونِ عبادتِهِم جاريةً مستمرّةً ساعةَ خِطابِهِم، فالإنكارُ عليهِم لِما هو كائنٌ منهم وسيكونُ، لا لِما كان فيما مضَى.

غَرضُ الاستفهامِ ودَلالتُه:

تقريرُ الوثَنيّينَ بالمُغالَطةِ في عِبادةِ مَنحوتاتِهِم

جَرى الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ على تقريرِهم بالمُغالَطةِ، والإنكارِ عليهِم، معَ تَوبيخِهِم، والتّسجيلِ عليهِم بالجِنايَةِ، والنّعيِ على عُقولِهِم، وتسفيهِهِم، وأومَأَ الاستفهامُ في هذا المَوضِعِ إلى الاستعجابِ والاستغرابِ والاستهجانِ، من عِبادةِ ما يَنحِتون، وهو استعجابٌ للواقِعِ البائِسِ لا استفهامٌ عن أمرٍ غيرِ واضحٍ.

نُكتةُ اختيارِ ﴿مَا﴾:

اختيارُ الأدواتِ خادِمٌ لتَجليةِ معاني الحقائقِ

جاء التّعبيرُ بأداةِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾؛ لِصدْقِها على ذَواتِ ما لا يَعقِلُ، وهي الأصنامُ، فاستِعمالُها هُنا هو الأصلُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 144.

وفيهِ تصريحٌ مِنه ﷻ لهم بِبُطلانِ آلهتِهم؛ إذ هيَ لا تَعقِلُ ولا تَعلَمُ، فكيفَ تُعبَد؟![1].

نوعُ ﴿مَا﴾ وتقديرُها:

(ما) تَحتَمِلُ المَوصولَ الاسميَّ والمَصدريّةَ والنّكرةَ المَوصوفةَ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: (الَّذي تَنحِتونَه)، وجَوّزَ أن تكونَ مصدريّة، تُؤوَّلُ مع مدخولِها بمصدرٍ؛ أيْ: (أتعبدون نحتَكُم). ويصِحّ أن تكونَ نكرةً موصوفةً بقولِه: ﴿تَنْحِتُونَ﴾، والتَّقديرُ: (أتعبُدونَ شيئًا تَنحِتونَه، أو أصنامًا تَنحِتونَها)[2].

نكتةُ التعريفِ بالصِّلةِ:

صلةُ المَوصولِ تَحشِدُ أدلّةَ العَقلِ وبراهينَ الفِطرةِ

على القَولِ بأنّ ﴿مَا﴾ موصوليّةٌ، فإنّ إيثارَ استعمالِ الاسمِ المَوصولِ معَ صِلتِهِ دونَ الاسمِ الظّاهرِ في قولِه تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، فلَم يقُل: (أتعبُدونَ المَنحوتاتِ)؛ لِتَمييزِ تلكَ المَعبوداتِ أكمَلَ تمييزٍ، فتعريفُها بالصّلةِ تعريضٌ بها وتهوينٌ، وتحقيرٌ من شأنِها[3]، ووجْهُ ذلكَ التّهوينِ لها وامتهانِها: اشتمالُ مضمونِ الصِّلةِ على تَسلُّطِ فِعلِهم على مَعبوداتِهم؛ أيْ: (إنّ شَأنَ المَعبودِ أن يكونَ فاعلًا لا مُنفعِلًا، فمِنَ المُنكَرِ أن تَعبُدوا أصنامًا أنتُم نَحتُّموها والشّأنُ أنّها أقلُّ مِنكُم)[4].

بَلاغةُ المَجازِ العَقليِّ في إسنادِ الفِعلِ إلى عُمومِهم:

المُتسبِّبُ في شيءٍ صانعٌ له

الخِطابُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، مَحمولٌ على العُمومِ لِجَميعِ مُشركي قَومِه، معَ أنّه ليسَ كلُّ مُشركٍ في قَومِه ناحِتًا، فالنّاحِتون فئةٌ خاصّة، وهُم بعضُ القومِ لا كلُّ القومِ! فإسنادُ النّحتِ إلى جميعِ المُخاطَبينَ - كما أسنَدَ العِبادةَ - مِن قَبيلِ إسنادِ الفِعلِ

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 258.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 118.
(3) السّامرّائيّ: 1/ 120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 145.

إلى الكُلّ، والبعضُ هو الفاعِلُ؛ لأنّه لمّا كانَ النّحتُ الحاصِلُ مُنْتَفِعًا به الكلُّ أُسنِدَ إلى جميعِهم، ولمّا كان البعضُ إنّما يَنحِتون لأجْلِ الجميعِ، ولمّا كان البعضُ الَّذي لا يَقومُ بالنّحتِ هُم مِن الأسبابِ المُعينةِ لِفِئةِ النّحّاتينَ، بطَريقِ التَّمويلِ والإمدادِ بالمالِ، فلِكُلِّ صَنعةٍ رُعاتُها بالمالِ وبغيرِه - أُسنِدَ إلى الجَميعِ، والإسنادُ من المَجازِ العقليِّ. وعليهِ: فيَكونُ إسنادُ العبادةِ إلى جَميعِهم حقيقةً، وإسنادُ النّحتِ إلى جَميعِهم مَجازًا، إلّا أنْ يَكونَ جَميعُ القومِ كانوا نحّاتينَ، أو تِجارتُهُم ومَعايشُهم مِن النّحتِ، وهذا بَعيدٌ مِن واقِعِ النّاسِ.

تَوجيهُ تَخصيصِ النّحتِ بالذِّكرِ:

الصّانعُ الّذي يَعبُدُ مَصنوعَه خالَفَ مُقتَضَى العَقلِ الصّريحِ لِاتِّباعِ الهَوَى

خَصّ النّظمُ الكريمُ ذِكرَ مَعبوداتِهم بكَونِها مَنحوتةً في قولِه تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، دونَ سائِرِ الإطلاقاتِ، ذلكَ أنّه بتَعيينِ تلكَ الصّفةِ لها، أرادَ إظهارَ حيثيّةِ المُغالَطةِ في عبادتِها، فكَونُها مَنحوتةً، عِبارةٌ عن كونِها مَصنوعةً لهُم، والمصنوعُ لا يُعبَد؛ لكونِه مَقدورًا عليه مِن صانِعِه، فالَّذي صنَعَه أولَى منه بالعبادةِ، إذ كيفَ يُعبَدُ المَصنوعُ ولا يُعبَدُ الصّانِعُ، فإن كانتِ العِبادةُ تَحِقّ لأحدٍ غيرِ اللّهِ فَهُم أحقُّ أنْ يَعبدوكم؛ لأنَّكم صنَعتُموهُم؛ ولَم يَصنَعوكُم[1].

وأيضًا وجْهٌ آخَرُ لِتلكَ المُغالَطةِ: وهو أنّهم يَعبُدونَ المَنحوتاتِ الَّتي شَكّلوها بأيديهِم، وقَبلَ إحداثِ صَنْعتِهم فيها كانت حِجارةً خامًا لا يَعبُدونَها، فكأنّهم بذلكَ لا يَعبُدونَ الشيءَ ذاتَه، بل يَعبُدونَ آثارَ صِناعتِهم فيهِ وهو النّحتُ، فحَصَل بذلكَ أنّهم لا يرتَضون عبادةَ المَخلوقِ - معَ بُطلانِ ذلك - وهو على أصلِ صورتِه، حتّى يُحدِثوا فيه خَلْقًا آخَرَ بالنّحتِ والتَّشكيلِ، ولا يَخفَى ما في ذلكَ مِن فضائِحِ العقلِ المُركّبةِ بعضُها فوقَ بعضٍ[2].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 258.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 403.

بلاغةُ جُملةِ الحالِ:

مَـن قَـدَرَ على خَـلقِ الـذّواتِ قَـدرَ على خَلْقِ أفعالِها مِن بابِ أولَى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واوُ الحالِ؛ أيْ: (أتيتُم مُنكَرًا إذْ عَبدتُّم ما تَصنَعونَه بأيديكُم، والحالُ أنّ اللّهَ خَلقَكُم وما تَعمَلون وأنتُم مُعرِضونَ عَن عِبادتِه، أو وأنتُم مُشرِكون معَهُ في العبادةِ مَخلوقاتٍ دونَكُم). والحالُ مُستَعمَلةٌ في التّعجيبِ؛ لأنّ في الكلامِ حَذفًا بعدَ واوِ الحالِ، إذِ التّقديرُ: (ولا تَعبدونَ اللّهَ وهو خَلقَكُم وخَلَقَ ما نَحتُّموهُ)[1].

نوعُ (ما) وتَقديراتُها:

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الظّاهِرُ أنّها موصولةٌ؛ أيْ: (خَلَقَكُم والّذي تَعمَلونَه مِن الأعمالِ على العُمومِ ويَدخُل فيها الأصنامُ الّتي تَنحِتونها دُخولًا أوّليًّا)، ويكونُ معنى العملِ هنا: التّصويرَ والنّحتَ ونَحوَهُما، ويُرجِّحُه ما قَبلَه؛ أيْ: (أتعبُدونَ الّذي تَنحِتون، واللّهُ خَلقَكُم وخَلَقَ عَملَكُم في النّحتِ والتّصويرِ، وهو إقدارُكُم عليهِ، وتَعليمُكُم إيّاهُ بعدَ إيجادِه لَكُم)[2]، وجَوّزَ بَعضُهم أنّها مَصدريَّةٌ؛ أيْ: (خَلقَكُم وعَمَلَكُم)، وهذا باطلٌ وبعيدٌ لِما يَنْبَني عليهِ مِنَ القَولِ بالجَبْرِ، وأنّ اللّهَ تعالى خلَقَ أعمالَهم الّتي بها كانتِ الأصنامُ؛ أيْ: (كَما خَلقَكُم خَلَقَ أعمالَكُم)، وهذا باطِلٌ؛ لِأنّ الإنسانَ مُخيّرٌ في أعمالِه، أو نَكِرةٌ موصوفةٌ؛ أيْ: (خَلقَكُم ومَنحوتاتٍ تعمَلونها)[3].

(مـا) موصولةٌ لأنّ مناطَ الإنكارِ عليهِم بِما في حَيّزِها

تَوجيهُ مُفرَدةِ العَملِ على الحقيقةِ والمَجازِ:

العَملُ لفظٌ عامٌّ يُرادُ بِهِ العُمومُ، والخُصوصُ لَهُ حُكمُ الأولَويّة

على القَولِ بأنَّ معنى العَمَلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ هو نحتُ الأصنامِ، بقَرينةِ الخُصوصِ قَبلَه في قولِه تعالى: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾. يكونُ في تَسميَةِ النَّحتِ بِعُمومِ العَملِ مَجازٌ مُرسَلٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 145.
(2) القَنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 404.
(3) جلال الدِّين المَحلّيّ، تفسير الجلالين، ص: 593، والقنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 404، وابن عُثَيْمين، تفسير سورة الصَّافّات، ص: 204.

لِعَلاقةِ العُمومِ، فأطلَقَ العامَّ وأرادَ بِه الخاصَّ، وإذا جَعلْنا العَملَ على عُمومِه فالكلامُ على ظاهِرِه الحقيقيِّ ولا مَجازَ فيه، وهذا هو الأولَى؛ لِدُخولِ النّحتِ دُخولًا أوَّليًّا في المُراد.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جاءَ بعدَ مَحذوفاتٍ مُقدّرة؛ أيْ: (لمّا أنكرَ عليهم بقَولِه: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فرَجَعوا إلى أنفُسِهم، ونُكِسوا على رُؤوسِهم، فلَم يُعيروهُ جوابًا ولَم يأبَهوا بحُجّتِه، فتَشاوَروا بينَهم، وعَزَموا على عُقوبَتِه). فذلكَ يُثيرُ في نفسٍ أنْ تَسألَ: (فماذا كانَ حُكمُهُم به بعدَ ذلكَ؟ أو إلامَ انتهى إليهِ أمرُهم معه؟)، فأُجيبَ: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾، وفي هذا الاستئنافِ البَيانيِّ دَلالةٌ على طَيِّ جُمَلٍ وألفاظٍ وأحداثٍ فُهِمَتْ مِنَ السّياقِ، فهو مَبنيٌّ على الإيجازِ وطَيِّ الأحداث.

المُتغطرِسُ يُجابِهُ أهلَ الحقِّ بالعِقابِ، والحُجّةِ بالعذابِ

دَلالةُ فِعلِ الأمرِ:

دَلَّ الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾ على أنّ القائلينَ هُم أكابِرُ السّدَنَة ورُؤساءُ الدّينِ والمَعبَد، أو القُضاةُ أعوانُ الأكابِرِ مِن قومِه، وذلكَ لأنَّ الأمرَ في مِثلِ هذا يَصدُرُ عنهُم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قولِه تعالى: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾ فلَم يَقُل: (ابنوا بنيانًا له)؛ للقَصْر؛ أي: (ابنوا بُنيانًا لَهُ وحدَه، لا لِغيرِه)، وأفادَ الاختصاصُ طلبَ بُنيانٍ خاصٍّ غيرِ مَعهودٍ.

دَلالةُ استِعمالِ صيغةِ ﴿بُنۡيَٰنٗا﴾، دونَ (بناء):

البُنيانُ دالٌّ على الجَمعِ والمَنعِ والامتلاءِ الَّذي يَعكِسُ طبيعةَ غَطرَستِهم

آثَرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدةِ البُنيانِ دونَ البِناءِ؛ فلَم يَقُل: (ابنوا له بناءً)، بل قال: ﴿بُنۡيَٰنٗا﴾؛ وذلك للدّلالةِ على أنّه بِناءٌ مُشيّدٌ كالجَبَلِ العظيم، وليسَ كأيِّ بِناءٍ، ففي التّعبيرِ بالبُنيانِ دَلالةٌ على شِدّة الإحكامِ والمَنَعَةِ في موضِعِ النّارِ الَّذي بَنَوْه، فلا تُنافِسُه سائرُ

الأبنيَةِ في هندستِه ومِعمارِه وإعدادِه، والبُنيانُ مَصدرٌ كغُفرانٍ وكُفرانٍ، وهو هُنا بمَعنى المَفعولِ؛ أي: (المبنيّ) أو اسمُ جِنسٍ جَمعيّ واحِدُه بُنْيانَة، وهذا الوَجهُ على معنى أنّ البناءَ كان ذا أجزاءٍ، فمَجموعُها البُنيانُ، وأمّا (بِناءٌ) فهو مَصدرٌ على وزنِ (فِعال) يدُلّ على امتِناعٍ، فالبناءُ يَمنَعُ ويحجُزُ ما بداخلِه عمّا بخارِجِه. والبُنيانُ أمْنَعُ وأجمَع كما سَبقَ[1]، وهو ما يَعكِسُ غَطرسَتَهُم وكِبْرَهم، وما امتلأتْ بِهِ قُلوبُهم مِن الحِقدِ؛ فأرادوا إفراغَهُ في هذا البُنيانِ.

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱبْنُوا۟﴾ وفِعلا الأمرِ: ﴿ٱبْنُوا۟﴾، و(ألقوا)، مِن مَقولِ القَولِ في: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ﴾[2]؛ أي: (ابنوا بُنيانًا لِتُلقوهُ فيه)، وفيه إلماحٌ إلى سُرعةِ الإلقاءِ.

معنى تَعريفِ لفظِ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ ونُكتَةُ تَخصيصِه بالذِّكرِ:

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه؛ أيْ: (جَحيمُ هذا البُنيانِ). أو (ال) للعهدِ على ذلكَ المَعنى أيضًا[3]، فسَواءٌ سمّيناها عهديَّةً أو عِوضًا فالمَآلُ واحدٌ، وخَصّ ذِكرَ الجحيمِ دونَ سائرِ أوصافِ النّارِ، ودونَ النّارِ نفسِها؛ لِمُناسَبةِ ﴿بُنْيَٰنًا﴾، فالجَحيمُ هو النّارُ الشّديدةُ الوَقودِ، ذاتُ الطّبَقاتِ، فكلّ نارٍ على نارٍ، وجَمْرٍ فَوقَ جَمْرٍ فهو جَحيم[4].

الجحيمُ هو النّارُ ذاتُ الطّبَقاتِ والحُجُراتِ والدّركاتِ المُتراكِبةِ

دَلالةُ فاءِ التّعقيبِ في الخَبرِ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ للعَطفِ والتَّعقيبِ الإخباريِّ على ما قَبلَها، فالتَّعقيبُ في التَّرتيبِ السَّرديِّ فقطْ للكلامِ، وأمّا في الواقعِ، فلا تَعقيبَ؛ لأنّ إرادةَ الكيدِ بِهِ مُتزامِنةٌ ومُندَمِجةٌ في معنى قولِهم: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾[5].

مَنْ غُلِبَ بالحُجّةِ استَعانَ بالكَيْدِ

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (بنى)، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 16/ 258، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 26.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 158.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 146.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿بِهِۦ﴾، على المَعمولِ: ﴿كَيۡدٗا﴾؛ للاختصاصِ والحَصْرِ، إذْ لَم يكُن مُكادٌ بهِ حينَئذٍ إلّا هو، ففيهِ افتراضُ وجودِ غَيرِه، وحَصْرُ الأمرِ فيهِ، وهذا مِن المُبالَغة.

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَيۡدٗا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿كَيۡدٗا﴾ للتَّعظيمِ والتَّكثير؛ أيْ: (كيدًا عظيمًا ذا كثْرةٍ في أنواعِه وحيَلِه)، فيَصِحُّ على هذا المَعنَى أن يكونَ للتَّنويعِ أيضًا؛ لأنّ هذا الكيدَ مُتنوِّعٌ بحسَبِ تَفاوُتِهم في الإرادةِ، فكُلُّ واحدٍ مِن الَّذينَ أرادوا بهِ كيدًا له في الكَيْدِ باعٌ وخيَرةٌ غيرَ الآخَر، وذلكَ ناشِئٌ عنِ اختلافِ النّوازِعِ بينَ النّاسِ، وهو ما يُنشِئُ التَّفاوُتَ والاختلافَ في الخُلُقِ الواحِد.

اختِلافُ النّوازِعِ يَـــؤولُ إلى الـتَّـفـاوُتِ في الأخلاقِ

نوعُ الفاءِ ودَلالتُها البيانيّةُ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ الجزاءُ؛ أيْ: (جازيناهُم على وجْهِ السُّرعةِ بِما أرادوهُ مِنَ الكَيْد)، فعَطَفَ مُجازاتَهُم في جُملةِ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ على جُملة: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾، فجاءَ بالفاءِ؛ ليَدُلّ على سُرعةِ إنجازِ اللهِ وعدَه لأنبيائِه وأوليائِه بالنّصرِ والدِّفاعِ، وعدَمِ إمهالِه لِمَن أرادوا بهِم سوءًا وكَيدًا، وعدَمِ تسليمِهم لسُلطانِ الكُفرِ، وعدَمِ خذلانِهم، كما قال تَعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحجّ: 38]، وكما ورَدَ في الحديثِ: "مَن عادَى لي وليًّا فقَد آذَنْتُه بالحَربِ"[1]، فهذِه الفاءُ في: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ هي فاءُ السُّرعةِ في المُعاقَبةِ والتّفريع.

اللـه أسـرعُ في إنجازِ وعـدِه مِن سُرعةِ الكائدينَ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالأسفَلينَ، دونَ الأخسَرينَ:

جاءَ استِعمالُ مُفرَدةِ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ لمُناسَبةِ (البُنيان) و﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾، فلمّا كانَ البُنيانُ الَّذي بنَوْه صاعِدًا عميقًا، وكان ذلكَ مُناسِبًا

رَدُّ الـكَـيْـدِ في النّحرِ هو عِقابُ الكافِرِ بجِنسِ ما أرادَهُ بأولياءِ اللهِ

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ: (6502).

للجَحيم الَّذي هوَ دَرَكاتٌ وطبَقات، ناسَبَ أنْ يُعبِّر عنهُم بجَزاءٍ مِن جِنْسِ عمَلِهِم وكَيدِهِم، وهو جَعلُهم في مَقامِ سافِلِ الدّرَكات، ووَضيعِ الطّبَقاتِ، جزاءً وِفاقًا، فكأنّ ما أرادوه لإبراهيمَ ﷺ مِن المَوضِعِ والمَقامِ قَد حاقَ بهِم وثبَتَ عليهِم. وأمّا في سورةِ الأنبياء، فوصفَهُم بوَصفِ ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: 70]؛ لانعقادِ المُناظَرةِ هُنالِكَ في السّياقِ، والمُناظراتُ خاسِرٌ ورابِح.

بلاغةُ الكِنايةِ في الوَصفِ:

في وصفِ الكائدينَ بنَعتِ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ إيماءٌ إلى عُلوّ إبراهيمَ ﷺ، وخَلاصِهِ منهم، وإظهارِه عليهم[1]؛ أيْ: فجعلناهُم الأسفَلينَ، وجعلناهُ الأعلَى عليهِم.

بلاغةُ القَصرِ ودَلالتُه:

تُعريف جُزْأي الجُملةِ في مَفعولَي الجَعْلِ، في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ يُفيدُ القَصرَ، وهو قَصرٌ للمُبالَغةِ كأنّ سُفْلَهم لا يُدانيهِ سُفْلٌ، وكأنّهمُ انفرَدوا بوَصفِ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ فلا يَصدُقُ إلّا عليهِم[2].

مُضاعَفةُ الجَزاءِ للمُعتدي بحسَبِ عَراقتِهِ في العُدوانِ

دَلالةُ صيغةِ (أفعَل) التّفضيلِ:

جاءت صيغةُ المُفاضَلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، والأسفَلُ مُبالَغةُ (سافِل)، فهو اسمُ تفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ؛ فهو لمُجرّدِ الدّلالةِ على قوّةِ الوصفِ وتأكيدِه، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: 27]، فَهُم أرادوا أن يَجعَلوا إبراهيمَ ﷺ في أسفلِ النّار، فردَّ اللّه عليهِم ما أرادوا جزاءً وِفاقًا، وقد يكونُ التَّفضيلُ على بابِه، فتَثبُتُ المُفاضَلةُ بينَهُم وبينَ سائرِ السّافِلينَ، فهُم أسفلُ مِن كُلِّ سافِلٍ، ولا مُفاضَلةَ بينَهم وبينَ الخَليلِ – حاشاهُ ﷺ أنْ يَشترِكَ معَهُم في شيءٍ من ذلكَ الوصفِ تَنزّهَ وتَبرّأ[3]!

تَعكيسُ إرادةِ المُبطِلينَ تَنكيسَ لقوّةِ المُعانِدينَ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 107.
(3) الهمذانيُّ، الفريد في الإعراب: 4/ 137، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 23/ 159.

تَوجيهُ المَجازِ المُرسَلِ:

مَن غُلِبَ سَفُلَ ومَن هانَ تذلّلَ

لفظُ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ هو جَمعٌ لِلَفظِ (الأسفَل)، وهو الذّليلُ المَغلوبُ، فعَبّرَ عن إذلالِهم ومَغلوبيّتِهم بلَفظِ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾؛ لِكَونِ ذلكَ الوصفِ لازمًا عن الذِّلّة والغَلبةِ، فمَن كانَ مَغلوبًا كان لا بدّ أن يكونَ في المَحَلّ الأسفَلِ، فأطلَقَ اللّازِمَ وأرادَ المَلزومَ، على طريقةِ المَجازِ المُرسَل[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ في لَفظِ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾:

تصويرُ المَشهَدِ الغَيبيّ بإيجازٍ بديعٍ

في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ شَبَّهَ حالَهُم في انغلابِهم وانقلابِهم مَذلولينَ، بِحالِ مَن قَهرَهُ غيرُه، فاعتَلاه، وجَعَله أسفلَ منه؛ ففي التَّركيبِ استعارةٌ تمثيليّةٌ، وفي الكلمةِ استعارةٌ تصريحيّةٌ[2]، ونُكتَتُها تَصويرُ المَشهَدِ والمُناداةُ على عُلوِّ الخليلِ عليه السلام بإنجائِه من النّار، ومآلُ الحدَثِ بِما اشتَمَل عليهِ مِن نَصرِ اللّهِ تعالى له.

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 146.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»